



أثارت تصريحات رئيس الكنيسة الروسية (الأرثوذكسية) في شأن التدخل العسكري في سوريا، ووصفه بأنه «معركة مقدسة»، سخطاً واستهجاناً واسعاً وحملات تشهير وسخرية من مزاعم العلمانية وحماية الأقليات التي يدعىها نظام بشار الأسد وحلفاؤه منذ خمس سنوات، والتي بذرعيتها يفتک بالأکثريّة قتلاً وتهجيراً وتعذيباً من دون أي رادع داخلي أو دولي.

واستفطع كثيرون أن يكون الرئيس الروسي فلاديمير بوتين، وما تمثله بلاده من رمز للشيوخية وتحمله من إرث ثقيل من الإلحاد، استعان بخطاب ديني وسلطة دينية، لتبريير قرار عسكري وسياسي بالانخراط المباشر في سوريا وتسويقه داخلياً.

فهو بدا لوهلة، كمثل جورج بوش في 2003، يعلن حرباً صليبية على الإرهاب في العراق، مع فارق أن بوتين استعان في جهاده المسيحي هذا، بجهاد طائفي «أقلوي» آخر، شيعي، يمثله «حزب الله» والفصائل العراقية المقاتلة إلى جانبه.

ووسط تلك المعارك المقدسة كلها، وهؤلاء المقاتلون تحت راياتها، ظهر جلياً من الضامن الفعلي لحقوق الأقليات والمدافعين عنها، وبدا البعث هزيلاً وأضعف عقيدة من أن يجد من يقاتل باسمه وأجله.

والحال أن اعتماد السلطة في روسيا على نفوذ الكنيسة ليس جديداً ولا هو بدعة من صنع بوتين.

ذاك أن أحكام أيام الشيوخية، وأقوالها، شهدت تقارباً صريحاً مع المؤسسة الدينية واستعاذه، إن لم يكن استنجاداً، بها. فعلى أثر اجتياح القوات النازية الاتحاد السوفيتي في 1941، سارع ستالين نفسه إلى عقد روابط مع المطارنة والرهبان واستقبل بعضهم وشجعهم على تعزيز الشعور الوطني/ القومي في خطوة غير مسبوقة، سواء لجهة إشراك رجال الدين في هذه المهمة، أو لجهة شد العصب الوطني الروسي، لا الأعمى العابر للأوطان.

وفي خضم الحرب العالمية الثانية، حين كانت خسائر الجيش الروسي تعد بالملايين مقابل تقدم واضح وإنجازات ميدانية على أرض المعركة، سمح الزعيم الشيوعي باستعادة طقوس العبادة في المنازل والصلوة في الكنائس حتى افتتح في غضون سنتين أو أقل أكثر من 25 ألف كنيسة. وذلك بعد سنوات تطهير منهجي طالت رجال الدين والمؤمنين على السواء، وبلغت حد الاعتقال في معسكرات الأعمال الشاقة، والمصحات العقلية، والتصفية المباشرة.

ولا يخلو أرشيف الصحف الروسية والأدب الحديث من وصف تلك المرحلة بصور وسلوكيات أبعد ما تكون عن الصورة النمطية الشائعة للمحارب السوفيياتي.

فالحرب أيقظت ممارسات دينية ظلت الشيوعية أنها قضت عليها، لأن يرتدي الجنود مثلاً صليبياً تحت البزة العسكرية، أو لا يخرجوا إلى المعركة قبل نيل بركة والدتهم. واستعادت المنازل تقليد إضاءة الشموع أمام الأيقونات وعقد النذور إلى حين عودة المقاتلين. ذلك كله وغيرها مما تحفل به الكتابات عن تلك المرحلة جرى في روسيا السтаلينية، التي جعلت الإلحاد ديناً بديلاً في مواجهة سلطة الكنيسة ورجالها.

لكن الكنيسة في المقابل، ردت الجميل بمثله. فعدلت خطابها المعادي للثورة البلشفية، وأيدت «إنجازاتها»، وتبنت مواقفها «الوطنية»، حتى راح ستالين، منذ خطاب الاحتفال بالنصر، يفرط في استخدام تعبير «وطني».

وكان للحرب العالمية الثانية، تأثير كبير في إبرام عقد اجتماعي جديد بين السلطتين السياسية والدينية في روسيا الشيوعية، تعزز في مرحلة البيرسترويكا ولا يزال إرثاً متناقلًا بكل أمانة بعد عقود من سقوط الاتحاد السوفيافي.

وعلى كل حال، لم يفت بوتين التذكير بالحرب العالمية والدور الروسي في كسبها خلال إلقاء كلمته الأخيرة في الأمم المتحدة في نيويورك، مشبهاً المرحلة الحالية بالأربعينات التي شهدت تعاوناً أميركياً - سوفياتياً أتى ثماره في وجه النازية، وليس ما يمنع تكرار ذلك النصراليوم في التحالف ضد «داعش».

لكن ما يفوت الرئيس الروسي ربما، أن الحرب الباردة انتهت وإن كان لا يزال هناك بعض نقاط تقاطع معها، وأن الاستعانتة بالدين ورجاله ورموزه، إن لم تكن جديدة في روسيا، فهي لم تعد حكراً عليها وعلى الكنيسة كما في ذلك الزمن. فثمة كثيرون من ينتظرون حرباً صليبية يمن الله بها عليهم، لتعزيز جهادهم وإعداد مزيد من العدة له.

الحياة اللندنية

المصادر: